The form of the poem in the granadian era

Dr. Rami Abdel Karim Khader*

(Received 4 / 7 / 2024. Accepted 15 / 8 / 2024)

□ ABSTRACT □

The two-and-a-half-year-long Granada period produced the experiences of poets who contributed to the building of the literary and cultural civilization of Granada and wrote to witness the decline of that civilization when Granada fell in 1994. Although the Andalusian poem has received many studies, the study of the structure of the poem in the era of the children of the Red has not received sufficient attention. It should be noted that Moroccan and Oriental studies have provided rich material in the study of the ancient text , And these studies focused on the study of the experiences of specific poets, did not meet all the poets at that stage, and from here we should try to study the structure of the poem at that stage. It should be noted that the studies that dealt with the study of the term of building the poem are few studies, and that the most studies tend to study the term (structure poem), and the most important poets of this period: Ibn Sahl - Ibn Farkun - Ibn Abar - Joseph III - Abu Hayyan - Karim al-Qaisi - Ibn Zmrk - Ibn al-Ghamaz - Qasim bin Abdullah al-Balansi - Ibn Hobeish - Ibn al-Janan - Al-Fazazi - Abdul Karim al-Basti - Ibn al-Khatib

Keywords: The beginning of the poem - Introduction poem - good disposal - Conclusion of the poem

Copyright **:**Tishreen University journal-Syria, The authors retain the copyright under a CC BY-NC-SA 04

* **PhD in Arabic Language and Literature, Tishreen University, Latakia, Syria**
rami.khader@tishreen.edu

شكل القصيدة في العصر الغرناطي

د. رامي عبد الكريم خضر*

(تاريخ الإيداع 4 / 7 / 2024. قبل للنشر في 15 / 8 / 2024)

□ ملخّص □

إنّ الفترةَ الغرناطيةَ التي امتدتْ قرنين ونصفاً أو يزيد، أفرزتْ تجاربَ شعراءَ أسهموا في بناء الحضارة الأدبيةِ والثقافية لغرناطةَ، وقد كُتبَ لهم أن يشهدوا غروب تلك الحضارةِ حين سقطت غرناطة عام اثنين وتسعين وأربعمئة وألف (1492م). ويُعدّ عصر بني الأحمر غني الإنتاج، خصب المعاني، منفتح الأفكار، ومع أنّ القصيدة الأندلسية قد حظيت بدراسات كثيرة إلّا أن دراسة هيكل القصيدة في عصر بني الأحمر لم يلقَ العناية الكافية، وتجدر الإشارة إلى أن الدراسات المغربية والمشرقية قد قدّمت مادة غنية في دراسة النص القديم، وقد ركزّت تلك الدراسات على دراسة تجارب شعراء محددين، ولم تستوفِ كلّ الشعراء في تلك المرحلة، ومن هنا كان حرياً أن نحاول دراسة هيكل القصيدة في تلك المرحلة.

وتجدر الإشارة إلى أنّ الدراسات التي تناولت دراسة مصطلح بناء القصيدة هي دراسات قليلة، وذلك أنّ أكثر الدراسات تميل إلى دراسة مصطلح (بنية القصيدة)، ومن أهم شعراء هذه الفترة : ابن سهل – ابن فركون – ابن الأبّار– يوسُف الثالث– أبو حيان – عبد الكريم القيسي– ابن زمرك – ابن الغمّاز– قاسم بن عبدالله البلنسي – ابن حبيش – ابن الجنان – الفازازي – عبدالكريم البسطي – ابن الخطيب.

الكلمات المفتاحية : مطلع القصيدة – مقدمة القصيدة – حسن التخلّص – خاتمة القصيدة .

حقوق النشر :مجلة جامعة تشرين– سورية، يحتفظ المؤلفون بحقوق النشر بموجب الترخيص CC BY-NC-SA 04

* **دكتوراه ، اللغة العربية وآدابها، جامعة تشرين، اللاذقية، سورية.**

مقدمة

فضّل الأندلسيون القصائد ذات الموضوع الواحد التي تميل إلى الاهتمام بقضية واحدة دون اللجوء إلى تجزئة القصائد إلى وحدات موضوعية صغرى تشتت الذهن و تلتزم عمود الشعر في جوانبه الشكلية. ومع ذلك، فإن القصيدة الشعرية في كلتا الحالتين تكوّنت من أجزاء ثابتة في هيكلها هي: المطلع والمقدمة والغرض والخاتمة وهي أجزاء متلاحمة متماسكة فيما بينها دون حواجز واضحة وثيقة الصلة مع الموضوع العام في حالة الوحدة الموضوعية، أما في حالة التعدد فإنها تتناول موضوعات أخرى قد تفتقر إلى تلك الصلة بالغرض الرئيسي من هنا جاءت العناية بدراسة المقدمة والتخلّص في هذا النوع من القصائد دون اختلاف النسق أو تباين في أجزاء النّظم لأن النّفوس والمسامع إذا كانت متدرّجة من فن مباين له دون جامع بينها وملائم بين طرفيها وجدت نفوراً من ذلك ونبت عنه.

منهج الدراسة .

تستند الدراسة إلى المنهج البنيوي، وذلك لأنَّ المنهج البنيوي يهتمّ بدراسة الجسد اللغوي للنّص الشعري كبنية مستقلة بذاتها، وتدعو البنيوية إلى تحليل النص لإدراك العلاقات الداخلية، والوقوف على درجة ترابطها ودراسة النص الشعري من المنظور اللغوي والفني والجمالي. وتحليل المعاني الجديدة التي تؤديها عناصر النص من ألفاظ، وتراكيب، وصور، وموسيقا.

أولاً : مطلع القصيدة .

رأى النّقاد في مطلع القصيدة أهمية كبيرة، فهو مفتاحها وأوّل ما يتلقاه المتلقي منها، ولذلك ينبغي أن يكون مقبولاً، يقع في النفس موقعاً حسناً، فجاء في كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري من ذلك ما يؤكد أن المطلع هو: " أول ما يقع في السمع من القصيدة، و الدال على ما بعده، المُتَنَزَّل من القصيدة منزلة الوجه والغُرَّة . فإذا كان بارعاً وحسناً بديعاً ومليحاً رشيقاً، وصدر بما يكون فيه من تنبيه وإيقاظ لنفس السامع، أو أشرب بما يؤثر فيها انفعالاً ويثير لها حالاً من تعجيب أو تهويل أو تشويق، كان داعياً إلى الإصغاء والاستماع إلى ما بعده".[1]

وكانت للنقاد جهود ملحوظة في المطالع تبيّن ما يجب أن تكون عليه كي تتصف بالجودة وما ينفِّر المتلقي منها، وقد اعتنى شعراء العصر الغرناطي بمطالعهم كغيرهم من الشعراء الأندلسيين، لما وجد فيه من أهمية في الشعر فهو مفتاحه ومطلع الكلام وعنوان النظام، محله من القصيدة محل الوجه من الإنسان، إلاّ أنه وقع أحياناً بما يسيء لحسن المطلع وقبوله في النفس والسمع.

ومن مظاهر عناية الشعراء بالمطلع مناسبته لمقصد الشاعر، ومقتضى الحال، وموضوع القصيدة، واعتماده الألفاظ، والمعاني المناسبة، والجيدة التي تنظر في أحوال المخاطبين، وتميل إلى شهواتهم، وتتجنب ما يكرهون سماعه، وخلوّه من المآخذ النحوية وتنويع صيغه بين الإنشاء والخبر، وبعده عن التعقيد، وحسن

مصراعيه وحسن البيت الثاني الذي يليه. وممّا قاله ابن الخطيب في نظمه مطالع شعره. (من البسيط)[2]

الحمد لله موصولاً كما وجبـــا فَهْو الَّذي برداء العزَّة احتجبـــا

---

[1] – **العسكري. أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل. كتاب الصناعتين، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة،1952م – ص 435.**

[2] – **ابن الخطيب. لسان الدين السلماني، الديوان، حققه: د. محمد مفتاح، دار الثقافة، الدّار البيضاء، ط1، 1409هـ، 1989م، المجلد الأول، ص118.**

فقد أظهر براعة وجودة في نظم المفردات ومراعاتها لموضوع القصيدة الذي جاء في الاحتفال بإتمام ولد السلطان لقراءة القرآن، فاستهله بذكر " الحمد لله " الذي لا ينقطع، وذلك مما يبعث إلى الشوق والإيمان في نفس المتلقي ويجعله موصولاً بالذات الإلهية بالتسبيح والتحميد والتكبير، وهو مطلع اشتمل على موسيقا متمثّلة بالتصريع تضافرت مع اصطفاء المفردات وملائمتها للمعاني زادته حسناً ورونقاً. ومن ذلك أيضاً قوله في مطلع قصيدة يمدح فيها أمير المسلمين أبي الحجاج : (من البسيط) [3]

سُعُودُكَ لا مَا تَدَّعِيهِ الكَوَاكِبُ وَجُودُكَ فِينَا لا السَّحابُ السَّوَاكِبُ

ومن المطالع التي راعى فيها الشاعر ابن الجنّان جودة اللفظ والمعنى معاً بما يتفق مع موضوع القصيدة، قوله: (من الطويل)[4]

سأَصبرُ حتّى ينجزُ اللهُ وعدَهُ ولابدَّ للرَّحمنِ أَنْ ينجزَ الوعدَا

فقد أمدَّه بدفق موسيقي تألفه الأسماع يوفره البحر الطويل ذو التفعيلات المتناوبة، وأظهر عناية بتأليف المفردات وانسجامها دون تعقيد، وما يبدو في هذا المطلع تنوّع الأسلوب بين صيغة الخبر في الشطر الأول "سأصبر" وصيغة الإنشاء المتمثلة بالاستفهام في البيت الثاني في قوله: (من الطويل)[5]

ألمْ يعدِ اللهُ الكريمُ بفضلهِ ؟ مع اليسرِ يسراً ينجحُ السعي و القصدا

فصيغة الاستفهام "ألم يعد الله الكريم بفضله" يمكن أن يجعلها مظهراً من مظاهر الحيوية الدالة على عنايته بمطلع قصائده. وذلك لما للاستفهام من دور في التعبير عن الانفعال المتمثّل بانتظار عفو الله، وابن الجنّان ممن يحرصون على تلوين مطالعهم بعناصر الموسيقا الداخلية والخارجية، لذلك كان توظيفه لعنصر التكرار (وعد – ينجز) فضلاً عن اهتمامه بالمعاني التي استمدها من القرآن الكريم.

ومما أشار فيه المطلع إلى الغرض العام للقصيدة الشعرية، مطلع ابن زمرك الذي يمدح فيه السلطان أبا عبد الله، في قوله: (من الكامل)[6]

عامَلْتَ وجهَ اللهِ فارْقُب نصرَهُ فهو الجَزاءُ لقولهِ : إن تنصرُوا

فابن زمرك يبدأ قصيدته بمطلع يناسب موضوع القصيدة، وهو يعد الممدوح بالجزاء والخير، وينتقل إلى موضوع القصيدة في البيت الثاني، وكذلك مطلع قصيدة يتحدّث فيها ابن زمرك عن محاربته لشهوات النفس، وميله نحو الرّشد والتعقّل، وقد بلغ من العمر ما بلغ، فيقول: (من الطويل)[7]

أثُوبُ إلى حلمي الكفيلِ بسلوانِ وأُصْلِحُ من شَاني وإن رَغِمَ الشّاني

ثنيتُ عِنانَ النّفس عن ملعبِ الصّبا ولبيّتُ داعي الرُّشدِ من قبلُ ناداني

---

[3] – **ابن الخطيب. الديوان، المجلد الأول، ص120.**

[4] – **ابن الجنّان الانصاري الأندلسي، شاعر المديح النبوي بالأندلس في القرن السابع الهجري، الديوان تحقيق: د. منجد مصطفى بهجت، 1410هـ، 1990م، ص 79.**

[5] – **ابن الجنّان. الديوان، ص79.**

[6] – **ابن زمرك الأندلسي. محمد بن يوسف الصّريحي، الديوان، تحقيق: د. محمد توفيقي النّيفر، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1997م، ص50.**

[7] – **ابن زمرك الأندلسي. الديوان، ص 181،**

والمطلع مرتبط مع الموضوع العام للقصيدة أو مع موضوع المقدمة بصلة، وثيقة وفي حديث حازم القرطاجني ما يفيد أن قيمة المطلع تتجلى في مناسبته لمقصد المتكلم فيقول:" وملاك الأمر في جميع ذلك أن يكون المفتتح مناسباً لمقصد المتكلم من جميع جهاته ، فإذا كان مقصده الفخر كان الوجه أن يعتمد من الألفاظ والمعاني والأسلوب ما يكون فيه بهاء وتفخيم، وإذا كان المقصد النسيب كان الوجه أن يعتمد منها ما يكون فيه رقة وعذوبة وكذلك سائر المقاصد ".[8]
ومما عيب في بعض المطالع ما قاله ابن الخطيب في الوصف : (من الكامل)[9]

حجـراً رماه المنجنيق، فَشأنُهُ متطأطـــئٌ متدافـــعٌ ملمومُ

إضافة إلى وعورة الألفاظ، وتلفظها الأذهان، نلحظ النهاية غير الموفقة في مصراعي البيت وعدم انسجام كل منهما في إعطاء المعنى المراد، وكما يقول ابن رشيق في كتابه العمدة : "إنما يؤتي الشاعر في هذه الأشياء – العيوب – إما من غفلة في الطبع وغلظ، أو من استغراق الصنعة، وشغل هاجس بالعمل يذهب مع حسن القول أين يذهب ". [10]

وقد جعل الشعراء مبدأ كلامهم دالاً على مقصده، وافتتحوا القول بما هو عمدة في غرضه، واستثمروا ما يجب أن تتوافر عليه المطالع من حسن العبارة وشرف المعنى وتمامه، وحسن الألفاظ ودلالتها على المعاني، وقد وُفِّقَوا في نظم بعضها، وخرجوا عن ذلك في بعضها.

ثانياً : مقدمة القصيدة .

مقدمة القصيدة تقليد فني وظاهرة كبرى في شعرنا العربي القديم، حفلت بها دراسات القدماء والمحدثين فأشبعوها درساً ونقداً وتفسيراً ".[11] وتعددت أشكال المقدمات وأنواعها عند شعراء العصر الغرناطي واختلفت مضامينها وتقاليدها منها المقدمات الطللية والغزلية والخمرية والطيفية والطبيعية، مع اهتمام بالمقدمات الطللية والغزلية أكثر من غيرها، وهذا لا يخرج عن كثرة تداولها في الشعر العربي على اختلاف مراحله وعصوره.

ولإيراد المقدمات عند شعراء العصر الغرناطي علاقة بالغرض الرئيسي، فأكثرها كان في قصائد المدح الخالص والتهاني، في حين جاءت أكثر القصائد الخالية من المقدمات في أشعار الجهاد والفتح والمقطوعات التي لا تحتمل المقدمات، وهذا ما أكّده ابن الأثير بقوله: " أما إذا كانت القصيدة في حادثة من الحوادث كفتح أو هزيمة جيش أو غير ذلك، فإنه ينبغي ألا تبدأ بالغزل لأن هذا يدل على ضعف قريحة الشاعر وقصوره عن الغاية أو على جهله بوضع الكلام في مواضعه، ولأن الأسماع تكون متطلعة إلى ما يقال في تلك الحوادث ".[12] ومن الأمثلة المؤكدة لما ساقه ابن الأثير، قول ابن الخطيب في تهنئة أبي الحجاج بفتح كركبول من ثغور العدو :(من الكامل)[13]

---

[8] – القرطاجني. حازم، منهاج البلغاء و سراج الأدباء، تحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة، المطبعة الرسمية، تونس، ط1، 1966م. ص310.

[9] – ابن الخطيب. الديوان، المجلد الثاني، ص 567.

[10] – القيرواني. أبو علي الحسن بن رشيق. العمدة في صناعة الشعر ونقده، تحقيق: د. محمد قرقزان، ط2، مطبعة الكاتب العربي بدمشق، 1994م، ج1، ص 223 .

[11] – انظر : عطوان. د. حسين، مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي، ط1، دار المعارف بمصر، 1970م، ص209–23.

[12] – ابن الأثير. المثل السائر في أدب الكاتب و الشاعر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة، 1939م، 236/2.

[13] – ابن الخطيب. الديوان، المجلد الأول، ص103.

بشرى يقوم لها الزَّمان خطيباً تأرَّجُ الآفاقُ منها طِيبَا
هذا طلوعُ فتوحكَ الغُرِّ الّتي ما كان طالع سعدها لِيغيبـا

فاستهل القصيدة بالتهنئة مباشرة دون مقدمة غزلية أو طللية، ونراه يبدأ نصّاً آخر يظهر فيه جلاء النصر الذي حققه السلطان على جيش الروم كالصباح ويعمد إلى عرضه مباشرة بقوله: (من الطويل) [14]

هو النَّصر بادٍ، للعيون، صباحـه فما عُذْرُ صدرٍ ليس يبدو انشراحُهُ
حديثٌ تهاداه الرّكائب فـي السُّرى وتُجْلَى على راحِ المسرَّةِ راحُـهُ

أبرز في هذه المقدّمة تفاصيل المعركة، وهلاك جيش العدو وفرار جنده، ووقوعهم في الأسر، وصوَّر جثثه وأشلاءه المنتشرة بأعداد كبيرة في كل مكان، ثم ذكر في خاتمتها حبّه للسلطان الذي استقر في القلب، وهذه القصيدة من بدايتها إلى نهايتها لا تخوض في غرض آخر، ولا تمهِّد لاستهلال في الغزل أو الطلل. والقصائد ذات المقدمات التقليدية فقد تنوعت فيها تلك المقدمات عند شعراء غرناطة، فكان منها الطلليات، والغزليات والخمريات، والحجازيات، والشيبيات، وغيرها.

1- المقدمات الطللية والغزلية .

عرف العصر الغرناطي عدداً وافراً من مقدمات الطلل والغزل الصرفة، فقد كان الشاعر الغرناطي يقف عند معاهد أصحابه فيراها آثاراً داثرة، و معالم دارسة، قد بدلت من الحياة موتاً، ومن الحركة سكوناً وتتراءى له بإزاء هذا المنظر الموحش مواكب حبّه، وذكريات شبابه، فيألم لضياعها، ويبكي على فقدانها. ويبدو أنَّ مقدمات النسيب الطللية عند الغرناطينن كانت تقليداً شعرياً متوارثاً نهجوا فيه أسلوب القدماء ومضامينهم.

وكان ابن الأبّار – بوصفه شاعراً أندلسياً – وفيّاً لهذا المنحى الذي تبنّاه الأندلسيون في افتتاح مدائحهم بالغزل أو وصف الأطلال، فقد بدا جلّ قصائده المركّبة في مدح الحفصيين بمقدمات غزلية في المقام الأول، ومن مقدماته الغزلية قوله يمدح السلطان أبا زكريا: (من الطويل)[15]

أتجحدُ قَتْلي ربّةُ الشَّنَفِ والخرْصِ وذاك نجيعي في مُخضّبها الرّخصِ
تَوَرّسَ ما تعْطو به منْ عبيطهِ كما طَلَعَ السّوْسانُ في صِبْغَةِ الحُصّ

...

لها الله ماذا في القلائدِ من حُلّى تَشِفُّ، وماذا في الشّفوف وفي القُمصِ
وذات ابتسام عن بُروقٍ لآلئ مُؤشّرةٍ ليست بِرُوقٍ ولا عُقْصِ

افتتح الشاعر قصيدته بمقدمة غزلية، وهو يقلّد الشعراء العرب القدماء في افتتاح مدائحهم بالغزل شاكياً آلام الهجر والحرمان، مصوّراً حبيبته في صورة تقليدية متزينة بالحلي، ومخضّبة بالحنّاء، وتعطرت بالنبات، ويعرض ابن الأبّار الصور الحسية في وصف المحبوبة، مبيّناً أثرها في نفسه. وقد يمزج الشاعر الغرناطي بين الغزل والخمر في مقدمة

[14] – ابن الخطيب. الديوان، المجلد الأول، ص219.

[15] – ابن الأبّار. أبو عبد الله محمد ابن الأبّار القضاعي البلنسي، الديوان، قراءة وتعليق:أ. عبد السلام الهرّاس، 1420هـ – 1999م، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، ص 349.

القصيدة، ثمَّ ينتقل إلى غرض القصيدة وهو المديح، كما في قول ابن زمرك يمدح السّلطان أبي عبد الله : (من المتقارب)[16]

إذا ما وجدتُ لسلمى سبيلا رشفتُ رَضاباً لها سلسبيلا
وَبتُّ أُعَلُّ بمسكٍ وراحِ بثغرِ أقاحٍ يروي العليلا
وضايقتُ فيها نطاق الوشاحِ ولمْ نَطْعمِ النّومَ إلّا قليلا

حتى يصل إلى مديح السلطان، ولقبه المستعين، فيصفه الشاعر بالإمام الجليل تقديراً لمكانته في نفسه.

لأشكوكِ إنْ عُدْتِ من بعدها إلى المستعينِ الإمامَ الجليلا

وتمتزج مقدمات الغزل عند ابن زمرك بوصف مشاهد الطبيعة من روض وزهر، كما في قوله:(من البسيط)[17]

يا روضةَ الخدِّ من وردٍ ومن آسِ فيكِ الشفاءُ ومنك المُمْرِضُ الآسي
لألاءُ ثَغْرِكِ في لَدْنِ القَوامِ حكى زهْراً تفتَّحَ في غُصنٍ منَ الآسِ

وقد يلجأ الشاعر إلى اسم الطلل أو اسم محبوبته في مقدمته، وربما كانت الأطلال وأسماء المحبوبة رموزاً لذكريات، عبر عنها ابن الخطيب بوضوح في قوله :(من الطويل) [18]

ليَ الله كم أهذي بنجدٍ ، و"حاجرٍ" وأَكْنِي " بِدَعْدٍ " في غراميَ أو "سُعْدَى"

ولسان الدين يعبّر في تلك المقدمات عن حبّه وشوقه للأصول والجذور الشرقية. وأيّاً كانت تفسيرات ودوافع المقدمات الطللية عند ابن الخطيب التي تشكّل جزءاً ورافداً حقيقياً من مقدمات تلك الفترة، فهي كثيرة وغنية بدلالاتها التي تكشف عن قراءة جديدة لكل نصّ من نصوص تلك المرحلة.

وصورة المقدمة الطللية والغزلية هنا تشبه إلى حد كبير مع مقدمات الشعر العربي القديم، وأخذت أشكالاً متعددة منها وصف الأطلال، ورحلة الظعن، ثمَّ المحبوبة، وقلّما كان الشاعر الغرناطيّ يجمع في المقدمة الطللية بين هذه الأشكال مجتمعة.

2- المقدمات الحجازية .

ارتبطت المقدمات الحجازية في الشعر الغرناطي بالمدائح النبوية والميلاديات، وشعر التصوف، فنرى الشاعر يهتمّ بها اهتماماً ملحوظاً، ويعبّر بفيض عاطفي حزين عن الشوق إلى مغاني الحجاز، والتغزّل بشخصية النبي غزلاً صوفياً رمزياً، ويعلن قربه الدائم منه مهما شطَّ المزار. ويمكن تعليل كثرة هذه المقدمات وشوقهم لها في شعر الأندلسيين كلّهم على حد تعبير الدكتور عصام قصبجي:" فلقد كان توقد شوقهم تعويضاً باطنياً عن عجزهم في زيارة الحجاز وما يخلفه في النفس من ألم".[19]

[16] – ابن زمرك الاندلسي. الديوان، ص 57.
[17] – ابن زمرك الاندلسي. الديوان، ص 61.
[18] – ابن الخطيب. الديوان، المجلد الأول، ص 354 .
[19] – قصبجي. عصام. لسان الدين بن الخطيب، حياته و فكره و شعره، ط1، منشورات جامعة حلب، 1982م، ص 272 .

وليس شوقهم في حقيقة الأمر إلّا إلى الرسول (ص) وصحابته، فيعلن الشاعر شوقه للنبي صراحة دون رموز أو كناية. كما نجد عند ابن عربي، ولا يخفى ما لابن عربي من قصائد كثيرة في المدائح النبوية، وهو في هذه القصيدة يعبّر عن شوقه المستمرِّ للكعبة ولأرض الحجاز، فيقول:(من مجزوء الرمل)[20]

كعبة للسرِّ يسعى لها كلُّ من يمشي على قدم

من أراد الحج يقصده من جميع العُرب والعجم

وذكر المناطق الحجازية ما هو إلّا تعبير عن الشوق إلى الكعبة ومثوى النبي (ص)، فهو يحثّ الركب على زيارة الأماكن الحجازية المقدسة، وهذا الخطاب مكرر في القصائد النبوية، كما في قول ابن الجنّان: (من الطويل)[21]

فلله ركبٌ يمموا نحو مكةٍ لقد كرّموا قصداً وجلوا مناسجا

أناخوا بأرجاء الرجاءِ وعرسوا فأصبح كلٌّ مايزَ القدح فالجا

ويعلن الشاعر الغرناطي عن حنينه الدائم لمرابع النبوة وعن شوقه لنسائم الحجاز، وصبا نجد التي يجد فيهما راحه وروحه، ويكثر إيراد أسماء الأماكن في غرض المولديات، التي تمثل الحجازيات أكثر المقدمات مناسبة لها ومن ذلك قول ابن الخطيب:(من الطويل)[22]

سقى علم الجَّنان فالجزعَ فالبانا مُلِثٌّ يباري الرِّهم سحَّاً وتهتانّــا

معاهد لذَّاتٍ، ربـــــوع مآربٍ هَصَرْنَا بها غصن الشَّبيبة فينانَــا

ولاريب أنَّ هذا النموذج يؤسّس لعلاقة وثيقة بين المكان ونفسية الشاعر، ولذلك كانت النفس شريكاً واضح المعالم في الحجازيات، وبهذا تتبدى الصلة الوثيقة بين المقدمة الحجازية والغرض الرئيس الذي يغلب عليه غرض المديح. وهناك صلة أخرى بين الأماكن الحجازية والأسماء التي يوردها الشاعر الغرناطي في مقدماته كهند وسعدى ولبنى وأسماء أخرى تنمُّ عن روح هائمة بمرابع الحجاز، و لقد آل ذلك كلّه إلى رقةٍ بالغة ميَّزت المدائح النبوية عامةً والمقدمات الحجازية خاصةً. وقد ارتبط الحديث عن الحجازيات بذكر الطلول ورسومها البالية فيبدو من ذلك ما يمكن أن نسميه بالمقدمة الطللية الحجازية، وليس نادراً أيضا أن يمتزج الحديث عن الحجازيات بذكر الغزل وما يعانيه الشاعر من حرِّ الشوق ونار البعاد، في غزل الصوفي يتسامى فيه الشاعر عن مفاتن الجسد.

3- المقدمات الخمرية .

"كانت الخمريات من أكثر الفنون الشعرية ذيوعا بين شعراء الأندلس، مخالفين ذلك التحريم الديني للخمر، بيد أنَّ ما كان يشربونه لم يكن كله من العنب، بل عرفوا صنوفا أخرى من العصير كان شربها حلالا بشروط، أو لم ينته الناس في أمرها إلى رأي، وكانت عادة الشاربين أن يجتمعوا على الكؤوس في الصباح (الصبوح)، أو في المساء (الغبوق)، وكانوا يُبَرِّدُون الخمر ويمزجونها بالماء. وأغلب ما يكون اجتماعهم للشراب في قاعة واسعة، أو في رحبة الدار أو في موضع من مواضع اللهو في الرياض".[23]

---

[20] – **ابن عربي. الشيخ الأكبر أبو بكر محي الدين محمد بن علي بن محمد الطائي الحاتمي المرسي، الديوان، شرحه: أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 1416هـ – 1996م، ص10.**

[21] – **ابن الجنّان. الديوان، ص 76.**

[22] – **ابن الخطيب. الديوان، المجلد الثاني، ص580.**

[23] – **جوميت. إميليو. الشعر الأندلسي، ترجمة : حسين مؤنس، ط2، القاهرة، دار الرشيد، 2005م. ص 66.**

ورأى بعض النقاد أنَّ فنَّ الخمريات تراجع نهاية عصر الموحدين بعد سقوط أكثر مدن الأندلس بيد الإسبان، "ليحل محلها رثاء المدن، الذي فاضت عبقرية ناظميه، فأبدعوا أروع المراثي وأصدقها وقعاً في النفوس. وفي عصر غرناطة، الذي اتَّسم بالرخاء والازدهار الثقافي، بدأ هذا الفن يستعيد عافيته، وساعد على ذلك النهوض بالغناء الذي ذاع وفشا حتى في دكاكين الحاضرة غرناطة. وعرفت الأندلس في أيام السلطان أبي الحجاج يوسف وابنه الغني بالله طائفة من أئمة الشعر الخمري أمثال: ابن الجياب، ويحيى بن هذيل، وابن خميس، وابن خاتمة الأنصاري، وابن الخطيب، وابن زمرك، وغيرهم".[24] ومن المعروف انتشار الفكر الصوفيّ في الأدب في عصر بني غرناطة، لذلك كانت المقدمة الخمريّة في الشعر الصوفي مجرد مدخل للوصول إلى غرض التصوّف، كما هي الحال عند ابن الجياب في قوله: (من الرجز)[25]

هات اسقني صِرفاً بغير مزاجِ راحي التي هي راحتي وعلاجي
إنَّ صبَّ منها في الزجاجةِ قطرةٌ شفَّ الزجاج عن السنا الوهّاجِ
....
ما أنت إلّا درّةٌ مكنونةٌ قد أُودِعَتْ في نطفةِ أمشاجِ
فاجهد على تخليصها من طبعها تعرجْ بها في أرفعِ المعراجِ
واشددْ يديك معاً على حبل التّقى فإنْ اعتصمت بهِ فأنتَ الناجي

وتمتزج المقدمات الخمرية عند ابن الخطيب بوصف الطبيعة، وهو يتنقّل من ذكر الخمرة إلى وصف الرياض والأزهار لأنها مكمّلة لجلسات الأنس والطرب، كقوله: (من الوافر)[26]

أدرها بين مزمــارٍ و عُــودٍ ودونك فاغتنمْ زمن السُّعـــودِ
فَبُرْدُ الرَّوض مرقُومُ الحواشــي و درُّ الطَّلِّ منظوم العقـــودِ
وجنح اللَّيـل مطويُّ النَّواحــي و ضوء الفجر منشور البنـــودِ
وخذها، و البلابل في خصــامٍ ونجم الصُبح ملتهب الوَقُـــودِ

وهذا المشهد يشابه مشاهد أخرى سابقة يكررها الشاعر ويعيد الوقوف عندها مراراً في وصف شعري رائق جميل. والميزة الثانية التي نجدها في المقدمات الخمرية عند ابن الخطيب أن المعاني والطريقة التي صاغها بها لا تنبئ عن أصالة هذا الفن، فقد نظمت بتكليف من الأمير والسلطان فيقول في تعليقه على قصيدة خمرية " و أمرني – رحمه الله – بنظم أبيات صبوحية على عادته من الانحطاط عن الجزالة ولين عريكة الكلام فقلت: (من الكامل)[27]

خذها فقد وضح الصَّباح ولاحـا والرَّوض يهدي عَرْفَهُ النَّفَّاحَـــا
مازال يكتُمُ من حديث نسيمـــه والآن، أمكنه الحديث فباحَـــا
لمَّا رأى جيشَ الصَّباح مشمِّراً عمَّت مضاربه رُبىً وَ بِطَاحَـــا

[24] – طويل. يوسف. مدخل إلى الأدب الأندلسي، ط1، بيروت، دار الفكر، 1991م.ص 67.
[25] – المقرّي التلمساني، الشيخ أحمد بن محمد، نفح الطيب من غصن الأندلس الرّطيب، تحقيق: د. إحسان عبّاس، المجلد الخامس، دار صادر، بيروت، 1968م، ص 435.
[26] – ابن الخطيب. الديوان، المجلد الأول، ص 282 .
[27] – ابن الخطيب. الديوان، المجلد الأوّل، ص 221 .

وإذا صح أنَّ ابن الخطيب افتتح قصيدته بالمبادرة إلى الخمر فإنَّ صنيعه هذا لم يكن بقناعة منه كما ذكرنا في مقدمته التي أعدَّها قبل افتتاحية القصيدة، فابن الخطيب من أسرة متدينة، وكان يتحمل مسؤوليات كبيرة في الدولة، وهذا من شأنه أن يكفّه عن القول في الخمر المحرّمة شرعاً، ولعلّه لذلك كان يقدم لنا الأعذار بأنه قال شعراً في الخمرة تحت الأوامر أو للمحاكاة.

4- مقدمات الطيف .

إنَّ المقدمات التي يصف فيها شعراء غرناطة الطيف قليلة ونادرة، هذه المقدمات التي كثُر جريانها على ألسنة الشعراء العرب فكرروا معاني من أرسى تقاليدها في العصر الجاهلي، " ويروى أن عمرو بن قميئة هو أول من ابتكر هذا اللون من المقدمات التي يصف فيها الشاعر طيف محبوبته " [28]. ومن مشاهد الطيف التي كررها الشاعر لسان الدين بن الخطيب في مقدمات قصائده دون أن يزيد عليها، ما نظمه في قصيدة كاملة في غرض مدح السلطان أبي عبد الله بن الوليد بن نصر، فيقول: (من الكامل)[29]

أهلاً بطيفٍ زارني غسق الدُّجـى	**فأعاد ليلتنا صباحـاً أبلجَـا**
فتحَتْ زيارته لصبٍّ هائـمٍ	**بابَ القبول ، و كان قِدْماً مرتجَـا**
لله درُّك من خيالٍ مُطْمِـعٍ	**علقت لنا بحباله أيدي الرَّجَـا**
كيف اهتديت ، و هل بدا لك مضجعٌ	**خطَّ النَّحول عليه سطراً مدمجَـا ؟**
يا سالكاً بِمُحِبِّه طرق النَّـوى	**هلاّ سلكت إلى التَّواصل منهجَـا**

فهو يرحب بطيف ممدوحه الذي ألمَّ به و زاره في حالك الليل الطويل، فحوله إلى صباح مشرق مليء بالمسرة والسعادة، طيف اهتدى لمشوق متيّم حزين حاول التعلّق بحباله علّه ينال منه المنى والتواصل، وجاز بمحبِّهِ القفار وعرف المسالك الصعبة، فعانى لوعة الفراق، وأثار كوامن الشوق في نفسه، ويطلب في خاتمة نصه الشفاعة والرضا من ممدوحه. ويحضر الطيف في مشهد تصويري آخر، يشبِّه فيه الشاعر ساعات الأنس التي حظيت فيها الأنفس بلقاء الممدوح بالخيال اللطيف الذي داهمه في وقت الليل فيقول: (من المتقارب)[30]

عزيزٌ بأنفسنا أن نـــرى	**ركابـك مؤذنـةً بارتحـالِ**
وقد خَبَرَتْ منك خلقاً جميـلاً	**أنافَ علـى درجات الكمـالِ**
وفازت لديك بساعات أنـسٍ	**كما زار في اللَّيل طيفُ الخيـالِ**
و لـولا تعلُّلنـا أنَّنـا	**نزورك فوق بساط الجـلالِ**
لَمَا فترَتْ أنفسٌ مـن أسـىً	**ولا برحت أدمعٌ في انهمـالِ**

يبدو هذا المشهد وكأنه حكاية منسوجة بخيوط الخيال، فالآمال معلّقة بزيارة الممدوح فوق بساط الجلال ولولا ذلك لما ذهب الأسى ولا انفكَّت الأدمع من الانهمار. وتتميز هذه المقدمة من حيث الصياغة والأسلوب بوفرة الصور البيانية التي تعتمد عناصر التشبيه والتجسيد المساندة عنصر الخيال في النظم وحسن التأليف.

---

[28] – عطوان. د. حسين، مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي، ص 104.

[29] – ابن الخطيب. الديوان، المجلد الأول، ص 204

[30] – ابن الخطيب. الديوان، المجلد الثاني، ص489.

5- مقدمات الشيب .

ومن مقدمات القصيدة الغرناطية مقدمات الشيب التي تعبّر عمّا يعتلي نفس الشاعر من رؤية جديدة للحياة بعد ما غلب الشيب، وأَفِلتْ أيامُ الصبا والشباب، ولكنّ ابن زمرك يرفض الانصياع للشيب، ويعود بنفسه إلى أيام الشباب والهوى، ويرى بعد الشيب ولادة جديدة، تشبه تجدّد ثمرة اللّوز بعد تفتّق قشرها فتغدو أطيب وأقوى وإنْ كان في ذلك جهالة، قوله: (من الطويل)[31]

أطَعْتُ الهوى بعدَ المشيبِ جَهالَةً وأقبحُ حالِ الشّيخِ يوْماً إذا صَبَا
فأشبهتُ حَالَ اللّوزِ في حالِ نورهِ إذا شابَ منْهُ الفوْدُ يستقبلُ الصّبا

وفي قصيدة أخرى من القصائد الإخوانيّة، يُصرّ ابن زمرك على نفس المعنى متسائلاً عن حقّ الصديق في التصابي بعد الشيب، ولكنَّ الشك والاضطراب النفسي يظهر جلياً في أسلوب الاستفهام الإنشائي، وهو في ذلك يحاول أن يبيح لنفسه ما يراه في غيره، فقال: (من الطويل)[32]

أبعدَ مشيبٍ جَاءَ إثْرَ شبابِ يعودكَ عِيدٌ مِنْ هَوى وَتَصَابِ ؟

أمّا ابن الخطيب فكانت مقدمات الشيب عنده مدخلاً للتفجع على الشباب، وقد نفث فيها آلامه، مصوّراً ذكرياته، ويبدو أنَّ هذه المعاني التي عرضها في مقدماته انسجمت مع واقع حياته وعمره الذي بلغ منه عتياً فأخذ يرددّها ثم ينفذ منها إلى موضوعاته وأغراضه الأساسية على شاكلة ما نقرأ في أبياته التالية: (من الطويل)[33]

تذكَّرت عهداً للشَّباب الذي ولَّـي فصاب لـه تَسْكَابُ دمعيَ و انهلاّ
و قلت ، و قد آنست بارقة الهـوى عهودَ الصِّبا ، يا ما ألذَّ و ما أحلى !
إذا العيش غضٌّ و الشَّبيبة روضةٌ أزاهرها تُجْنَى و أنوارها تُجْلَـى
وما كان إلاَّ كالخيال لنائـمٍ ألمَّ ، و يا سرعان ما قوَّض الرَّحْلا

افتتح الشاعر القصيدة ببكاء حار على الشباب كادت نفسه تتفطر وتتساقط حسرة عليه ، فقد ودَّع الشباب، بل إنّ الشباب هو الذي ودّعه بما فيه من عجائب تروق الناظرين ، وغادره مسرعاً كحلم جميل.

وقد تمتزج مقدمة الشيب بالغزل، فيكون من معانيها الاعتذار عن التغزل، بعد أن رحل الصِّبا وغزاه المشيب، ومن تلك المعاني الحواريّة بين النفس التي لا تنفك تَكْلَفُ بالهوى وتتشبث به في مرحلة الشباب والصبا، وبين الشيب الذي يرقبها بعين واعظ ومحاسب على تفريطها في جنب الله، ويحسّ القارئ فيها بصدق التعبير، وفي هذه المقدمة حديث مع النفس نابع من أعماقها ومن تجربتها في أحوال الدهر الخائن المتقلّب كما في قوله: (من الكامل)[34]

والنّفس لا تنفكُّ تكلف بالهـوى والشَّيب يلحظها بعيـن رقيـبِ
رحل الصِّبا فطرحْتُ في أعقابه ما كان من غزلٍ و مـن تشبيبِ
أترى التغزُّلَ بعد أن رحل الصِّبا شأني الغداةَ إذا المشيب نسيبِـي

---

[31] – ابن زمرك الأندلسي. الديوان، ص 99.
[32] – ابن زمرك الأندلسي. الديوان، ص 171.
[33] – ابن الخطيب. الديوان، المجلد الثاني، ص766.
[34] – ابن الخطيب. الديوان، المجلد الأول، ص 128 .

وهذه الأبيات قوية في التعبير عن الحسرة والأسى على ما ذهب وفات دون رجعة، وأمثالها في مقدمات شعر العصر الغرناطي ليست بالنادرة، وهو ما أحلَّ مقدمات الشيب محلَّها المكين في صدارة الشعر المعبّر عن تجربة الشاعر وتأمّله في العالم من حوله .

6- مقدمات الحكمة.

"تطوّر شعر الحكمة بتأثير الترجمة عن الأمم الأجنبيّة واتّساع آفاق الثقافة. وكان أول مظاهر هذا التطوّر أنَّ شعر الحكمةِ أصبح موضوعًا ثابتًا في الشعر العربي".[35] ومن المقدمات ما يجنح إلى الحكمة والتأمّل وربْط ذلك بموضوع النص، كأن يألم الشاعر من غدر الأصدقاء أو يعتبر بصروف الدهر وحوادثه، أو يعتقد ببعث الحياة التي هي محض سراب. فيشعر شعوراً عميقاً بأنَّ أصدقاءَه كانوا يضمرون له الشرَّ مهما أظهروا له من الود، وهو في ذروة نفوذه، يؤلف نظرية يستقيها من تجربته في الحياة مفادها أن الصداقة وهمٌ ما دامت مقترنة بالأنانية فأضحت أشبه بعنقاء أسطورية، وفي هذا المعنى يقول ابن الخطيب:(من الكامل) [36]

كِلني لعلمي في صحابي ، إنَّني ... بهمُ خبيرٌ ماهرٌ، و مجرِّبُ
لك ظاهرٌ منهم حكمْتَ به ، ولي ... منهم بواطن ، عن عيانك غُيِّبُ
لا تستقرُّ على التَّنافس صحبةٌ ... ومودَّة الأكفاء أمرٌ يصعبُ
والماء إن ألف الثَّواء تغيَّرت ... أوصافه وعلا عليه الطُّحْلبُ
إنَّ الصَّداقة لفظةٌ مدلولها ... في الدَّهر كالعنقاء بل هو أغربُ

وتمتزج مقدمة الحكمة أحياناً بمعاني المقدمات الأخرى كالهجاء، والأطلال، وغيرهما، ومن المقدمات التي جمعت الحكمة بالهجاء كما في قول ابن الخطيب: (من المنسرح) [37]

كن من صروف الرَّدى على حَذَرِ ... لا يقبل الدَّهر عذر معتذرِ
ولا تعوِّل فيه على دَعَةٍ ... فأنت في قُلْعَةٍ وفي سفرِ
فكلُّ ريٍّ يقضي على ظمأ ... وكلُّ أمنٍ يدعو إلى غَرَرِ
وكلُّ حيٍّ فالموت غايته ... وكلُّ نفعٍ يدني إلى ضررِ

والحكمة في هذا التقديم تدور حول الموضوع، فقد أوردها ابن الخطيب تمهيداً لغرض السخرية والاستهزاء بالوزير إبراهيم بن أبي الفتح، الذي حاز مقاليد الوزارة بواسطة القدر الذي يستطيع أن ينحدر به إلى أحطِّ المراتب بعد أن ساهم بترقيته و رفع شأنه. تلك هي المعاني التي دارت عليها حكمة لسان الدين بن الخطيب في مقدمات قصائده، ولا ريب أنها تقليدية تماثل تلك التي تغنّى بها شعراء الزهد والصوفية، ولكن استقاها من ثقافته ومن تجاربه في الحياة وتأمّله الحكيم في تقلبات الدهر وحوادثه.

7- مقدمات الاعتذار.

وتتعدد أنواع المقدمات الشعرية في عصر بني الأحمر، ومنها المقدمات الاعتذارية، وهي نادرة، وابن زمرك يدخل في قصيدته بمقدمة اعتذارية لينتهي بعد ذلك إلى غرض القصيدة، قوله: (من البسيط)[38]

---

[35] – هدّارة. محمد. اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري، دار المعارف، القاهرة، 1963م، ص 448.

[36] – ابن الخطيب. الديوان، المجلد الأول، ص 111 .

[37] – ابن الخطيب. الديوان، المجلد الأول، ص 428 .

هل من معينٍ على الأشجان والفكر أو مسعدٍ في قضاء اللّيل بالسهرِ
قد عيل يا خير من لاذ الغريب به بين الرجاء وبين اليأس مصطبري
ما زلتُ تُنهضني الأشواق نحوكمُ وأنثني من حيائي دائمَ الفِكَرِ

ثالثاً : حسن التخلّص .

التخلّص يدلّ على مهارة الشاعر، وقدرته الانتقال من بداية الكلام إلى الغرض المقصود بيسر وسهولة ورشاقة، وتكون فيه المعاني منسجمة، فلا يشعر السامع بالانتقال من نسيب، إلى مدح أو غيره. ويرى النّقاد أن حسن التخلّص في وصل الشاعر كلامه وصلاً لطيفاً بلا انفصال للمعاني، دون اختلال في النسق أو تباين في أجزاء النظم. ولم يقفوا في التخلص عند حدود الشعر القديم، إنما أدخلوا الشعر المحدث في حسابهم وأحكامهم، وعدّوا ما يصدر عنهم في هذا الشأن أحسن وألطف مما عند المتقدمين ويعللون ذلك بقولهم كما يتحدث النّقاد عن التناسب بين الأغراض المختلفة وحسن التخلص من غرض إلى آخر في القصائد ذات الموضوعات المتعددة، دون أن يبعد الكلام عن التنافر، ويراعى فيه اتفاق القصيدة كلها في الوزن الواحد وعدُّوا التخلص الأول إلى الموضوع الرئيس هو النقلة المعنوية الأبرز بين تلك الموضوعات وعليه يعوّلون.

كما في قول ابن الخطيب السلماني في مدح سلطان المغرب أبي عبد الله محمد بن نصر: (من الطويل) [39]

وأيّام أنسٍ قد نعمنـــا بقربهـــا وقد نام عنَّا حاســدٌ و عذولُ
حلفت بربِّ الرَّاقصــات إلى منىً لهنَّ إلى البيت العتيق ذميــلُ
لجودُ أميرِ المؤمنين محمَّـــــد بكلِّ مرامٍ في الزَّمان كفيــلُ

ومنه قول أبي القاسم بن قطبة الدُّوسي في مدح أبي الحجاج:(من الطويل) [40]

ولئن جرت من مقلتيَّ مدامـــــعٌ ووردت في وصل الحبيب الأكدرَا
فلكم صفا ماءُ الحياة بيوســـفٍ وغدا به ربع المظالـــم مقفــرَا
الآخذ الأرواح يوم نزالـــــــه والتَّارك البطل الكمـــيِّ معفِّرا

وقد أحسن الشاعر في التخلص من الغزل إلى المدح، فإنه ذكر أولاً جريان الدموع والفشل في الظفر بوصل الحبيب، ثم أدرج في البيت الثاني ذكر الممدوح بما يناسب ما هو من الاكدر فذكر صفاء ماء الحياة، فصار الكلام كأنما أفرغ إفراغاً واحداً .

وتنوّعت أساليب التخلّص عند ابن الخطيب، لتأكيد قدرته على تلاحم أجزاء الكلام، والتئام أساليبه مع اختلاف المذاهب، وتباين المقاصد والأغراض، فاعتمد الربط المعنوي، وهو أساس التخلص وجوهره، واستند على أساليب الربط التركيبي، وتنوعت لتشمل الاستفهام والعطف، والقسم والشرط، وما إلى ذلك من أساليب الربط بين الجمل التي برع ابن الخطيب في صوغها كربطه بالاستفهام قوله بعد مقدمة غزلية (من الكامل)[41]

---

[38] – ابن زمرك الأندلسي. الديوان، ص 174.

[39] – ابن الخطيب. الكتيبة الكامنة، فيمن لقيناه بالأندلس من شعراء الثامنة، تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، طبعة أولى، 1983م، ص281 – 282 .

[40] – ابن الخطيب. الكتيبة الكامنة، ص 274 .

[41] – ابن الخطيب. الديوان، المجلد الأول، ص 93 .

يا بَدْرَ تِمٍّ يهتدي بضيائـــــه ساري الفلاة ، و ليلتـــي ليـــلاءُ
أشكوك ؟ أم أشكو إليك صبابتي أنت الدَّواء ، و منك كـــان الدَّاءُ
ما لجَّ داءٌ أو تفاقم معضـــلٌ إلاَّ وفي يمنى يديـــه شفـــاءُ

فقد استعان بالاستفهام الذي جعله في موضع العطف بـ " أم " المعادلة، للدمج بين المقدمة والغرض الأساسي في مدح السلطان، ويشعر القارئ بالرابط المعنوي إلى جانب الرابط الأسلوبي المتمثل بانتقال معنى الشفاء من المحبوبة إلى الممدوح ، فتمكَّن من القافية وانتقل بلطف من بيت إلى أخر.

رابعاً: خاتمة القصيدة .

إنَّ خواتم القصيدة لا تقلّ أهمية عن مطالعها، فالانتهاء نظير الابتداء، وقاعدة القصيدة لأنها آخر ما يبقى منها في الأسماع و يثبت للذكر، والأعمال بخواتمها " وما وقع فيها من الكلام أحسن ما اندرج في حشو القصيدة، وأن يتحرّز فيها من قطع الكلام على لفظ كريه أو معنى منفّر للنفس عما قصدت إحالتها إليه"[42]. لذلك وجب الاعتناء بخاتمة الكلام، فيجعل آخره عذب اللفظ، حسن السبك، صحيح المعنى، والإساءة فيه تلغي كثيراً من أثر الكلام الحسن المتقدم عليه. وجاءت الخواتم في قصيدة الشاعر الغرناطي ثرية بالمعاني والدلالات المختلفة في شتى الأغراض كالدعاء، والتهنئة والمبالغة في المدح، وتقديم العذر على التقصير والسلام، والحكمة في الرثاء، وتضمين الأقوال والأشعار، وغيرها من الإشارات التي تجعل القصيدة جميلة في خاتمتها إنْ عمد الشاعر فيها إلى حسن القول وملاءمته للغرض والحال. وممّا جاء في المبالغة قصيدة ابن الجنّان في مدح الرسول والمؤلفة من مئة وأربعين بيتاً بدأها كلها بلفظة سلام، جاء مطلعها ملائماً للغرض ومتناسقاً مع المقدمة والخاتمة، ومطلعها (من الطويل)[43]

سلام على من جاء بالحق والهدى ومن لم يزل بالمعجزات مؤيدا
سلام على خير البرية شيمةً وأكرمها نفساً وبيتاً ومحتدا

حتى يصل إلى خاتمة القصيدة، فيكرّر ما كان قد ذكره في المطلع والمقدمة والغرض من معانٍ. ولكنه يبالغ في غرض المدح، فيقول في الخاتمة في القصيدة نفسها.[44]

سلام عليهم مثل طيب ثنائهم هو المسك أو للمسك من عرفه جدا
سلام عليهم إن حُبَّ جميعهم لتُلفيه في حبِّ احمدَ أحمدا

ولكن ابن الخطيب الشاعر المدَّاح ختم بغير الدعاء، إذ نرى في خواتيمه دلالات أخرى، كالمبالغة في المدح كما في قوله: (من الكامل)[45]

والدَّهـر محتفـلٌ لِمُلْكِـكَ محتفٍ يبدي علـى أثر العجيب عجيبَا

ومن وجوه العناية بالخاتمة تضمين بيت أو جزء بيت مشهور، أو آية قرآنية، أو مثل متداول، وهو وجه معروف في الشعر العربي، كتضمين ابن الخطيب للآيات القرآنية في خاتمة قصائده في قوله: (من الطويل)[46]

---

[42] – القرطاجني. حازم، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص 285 .
[43] – ابن الجنّان. الديوان، ص 80.
[44] – ابن الجنّان. الديوان، ص 96.
[45] – ابن الخطيب. الديوان، المجلد الأول، ص 105 .
[46] – ابن الخطيب. الديوان، المجلد الثاني، ص 638 .
*** سورة يوسف، الآية رقم21.**

ونادى لسان الفتح في عَرَصَاتِهم كذلك مكَّنَّا ليوسُفَ في الأرض*

وهكذا نجد أنَّ شعراء غرناطة اتبَّعوا سنّة الأقدمين في نهج القصيدة وبناء هيكلها، بدءاً بالمطلع فالمقدمة ثم التخلّص وانتهاءً بالخاتمة، وأبدوا عناية بصوغ المطلع كمفتاح للقصيدة، ووضع اعتبارات مهمة ساروا عليها أثناء نظمه مطالع شعره، ورغم إدراكهم أهميتها في جذب المتلقي، ونراهم قد تعثَّروا في بعضها، وهذا شأن الشعر والشاعر، وقد نوَّعوا في مقدمات قصائدهم وضمنّوها معانيَ مختلفة لم تكن غريبة مبتكرة في معظمها، إنّما مبذولة مكرورة في شكلها ومضمونها، إذ كانوا مكثرين في بعضها، مقلَّين في بعضها الآخر تبعاً للغرض والاهتمام، ولكن التخلص عندهم علامة من علامات الجودة والمقدرة في الانتقال من غرض لآخر بسلاسة ولطف، فقد استطاع الشاعر الغرناطي أن يربط بين المعاني المتعددة بأساليب مختلفة، وهذا دليل على مهارته في التنقّل البارع المحكم، وقد جاءت خواتيمه ثرية بالمعاني والدلالات المختلفة في شتى الأغراض، انطلاقاً من إيمانه بأنها لا تقلّ أهمية عن مطالعها، والإساءة فيها تلغي كثيراً من حسن الكلام المتقدّم عليها.

المصادر والمراجع

1-ابن الأبّار. أبو عبد الله محمد ابن الأبّار القضاعي البلنسي. الديوان، قراءة وتعليق: أ. عبد السلام الهرّاس، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 1420هـ - 1999م،.

2-ابن الأثير. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة، 1939م.

3-ابن الجنّان الانصاري الأندلسي. شاعر المديح النبوي بالأندلس في القرن السابع الهجري، الديوان، تحقيق: د. منجد مصطفى بهجت، 1410هـ، 1990م،

4-ابن الخطيب. لسان الدين السلماني. الديوان، حققه: د. محمد مفتاح، دار الثقافة، الدّار البيضاء، ط1، 1409هـ، 1989م.

5-ابن الخطيب. لسان الدين. محمد بن عبد الله، الكتيبة الكامنة، فيمن لقيناه بالأندلس من شعراء الثامنة، تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، طبعة أولى، 1983م.

6-ابن زمرك الأندلسي. محمد بن يوسف الصّريحي. الديوان، تحقيق: د. محمد توفيقي النّيفر، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1997م.

7-ابن عربي. الشيخ الأكبر أبو بكر محي الدين محمد بن علي بن محمد الطائي الحاتمي المرسي. الديوان، شرحه: أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 1416هـ - 1996م.

8-جوميت. إميليو. الشعر الأندلسي، ترجمة : حسين مؤنس، ط2، القاهرة، دار الرشيد، 2005م.

9-طويل. يوسف. مدخل إلى الأدب الأندلسي، ط1، بيروت، دار الفكر، 1991م.

10-العسكري. أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل. كتاب الصناعتين، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1952م.

11- عطوان. د. حسين. مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي، ط1، دار المعارف بمصر، 1970م

12- القرطاجنّي. حازم. منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ط1، تحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة، المطبعة الرسمية، تونس، 1966م.

13- قصبجي. عصام. لسان الدين بن الخطيب، حياته وفكره وشعره، ط1، منشورات جامعة حلب، 1982م..

14- القيرواني. أبو علي الحسن بن رشيق. العمدة في صناعة الشعر ونقده، تحقيق: د. محمد قرقزان، ط2، مطبعة الكاتب العربي بدمشق،1994م.

15- المقرّي التلمساني. الشيخ أحمد بن محمد. نفح الطيب من غصن الأندلس الرّطيب، تحقيق: د. إحسان عبّاس، المجلد الخامس، دار صادر، بيروت، 1968م.

16- هدّارة. محمد. اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري، دار المعارف، القاهرة، 1963م.

المراجع العربية المترجمة

1. Ibn al-Abbar, Abu Abdullah Muhammad ibn al-Abbar al-Qudai al-Balansi. Diwan; Reading and Commentary: A. Abdel Salam Al-Harras. Ministry of Endowments and Islamic Affairs, Kingdom of Morocco; 1420 AH - 1999 AD.

2. Ibn al-Athir. Al-Mathal al-Sa'ir fi Adab al-Katib wa al-Shair; Edited by Muhammad Muhyi al-Din Abdul Hamid. Cairo; 1939.

3. Ibn al-Jannan al-Ansari al-Andalusi. Al-Shair al-Madih al-Nabawi fi al-Andalus fi al-Qarn al-Sab'i al-Hijri. Diwan; Edited by Dr. Munjid Mustafa Bahjat; 1410 AH - 1990 AD.

4. Ibn al-Khatib. Lisan al-Din al-Salamani. Diwan; Edited by Dr. Muhammad Muftah. Dar Al-Thaqafa, Casablanca; 1st ed., 1409 AH - 1989 AD.

5. Ibn al-Khatib. Lisan al-Din Muhammad ibn Abdullah. Al-Katiba al-Kamina fi Man Laqainah fi al-Andalus min Shu'ara' al-Thamina; Edited by Ihsan Abbas. Dar Al-Thaqafa, Beirut; 1st ed., 1983 AD.

6. Ibn Zamarq al-Andalusi Muhammad ibn Yusuf al-Sarih. Diwan; Edited by Dr. Muhammad Tawfiq al-Nifer. Dar al-Gharb al-Islami; 1st ed., 1997 AD.

7. Ibn Arabi, Sheikh Al-Akbar Abu Bakr Muhammad ibn Ali ibn Muhammad al-Tayi al-Hatimi al-Mursi. Diwan; Commentary by Ahmed Hassan Basij. Dar Al-Kutub Al-Ilmiya, Beirut, Lebanon; 1st ed., 1416 AH - 1996 AD.

8. Gomet, Emilio. Al-Shi'r al-Andalusi; Translated by Hussein Mo'nis. 2nd ed., Cairo, Dar Al-Rashid; 2005 AD.

9. Tawil, Youssef. Madkhal ila al-Adab al-Andalusi; 1st ed., Beirut, Dar Al-Fikr; 1991 AD.

10. Al-'Asikari, Abu Hilal al-Hasan ibn Abdullah ibn Sahl. Kitab al-San'atain; Edited by Ali Muhammad al-Bagawi and Muhammad Abu Al-Fadl Ibrahim. 1st ed., Dar Ihya' al-Kutub al-'Arabiya, Cairo; 1952 AD.

11. Atwan, Dr. Hussein. Muqaddima al-Qasida al-'Arabiyya fi al-Shi'r al-Jahili; 1st ed., Dar Al-Ma'arif, Egypt; 1970 AD.

12. Al-Qartajini, Hazim. Minhaj al-Bulgah wa Siraj al-Adib; 1st ed., Edited by Muhammad al-Habib bin al-Khawja. Official Printing House, Tunis; 1966 AD.

13. Qasbi, Issam. Lisan al-Din ibn al-Khatib: Hayatuh wa Fikruh wa Shi'ruh; 1st ed., Publications of Aleppo University; 1982 AD.

14. Al-Qayrawani, Abu Ali al-Hasan ibn Rachiq. Al-'Umda fi Sina'at al-Shi'r wa Naqdih; Edited by Dr. Muhammad Qarqazan. 2nd ed., Arabic Writer Press, Damascus; 1994 AD.

15. Al-Maqri al-Tlemcani, Sheikh Ahmad ibn Muhammad. Nafh al-Tayyib min Ghusn al-Andalus al-Ratib; Edited by Dr. Ihsan Abbas. Volume 5, Dar Sader, Beirut; 1968 AD.

16. Haddara, Muhammad. Ittijahāt al-Shi'r al-'Arabi fi al-Qarn al-Thani al-Hijri; Dar Al-Ma'arif, Cairo; 1963 AD.